د. وسام جبران

فلسطين مُفارقةً: بين "التحرُّر" و"الخلاص المؤجّل"

(مقالة)

الناصرة

تشرين أول 2025

Gibran Publishing

Publishing Literature and Music Online

© 2025. All rights reserved.

فلسطين مُفارقةً: بين "التحرُّر" و"الخلاص المؤجّل"

مقدمة

في عمق الجغرافيا التي تتقاطع فيها المأساة بالتاريخ، تقف فلسطين اليوم بوصفها أكثر من قضية سياسية أو صراع على أرض؛ إنها مختبر حيّ لمفارقة فلسفية لطالما شغلت الفكر الإنساني: هل تكون الحرية فعلًا وجوديًّا حاضرًا، أم وعدًا مؤجلًا بالخلاص؟

هذه المفارقة، كان قد صاغها الفيلسوف البريطاني **إيزايا برلين** (Isaiah Berlin) في محاضرته الشهيرة "Two Concepts of Liberty" (تصوّران للحريّة)، حين فرّق بين الحرية السلبية (Negative Liberty) بوصفها تحرّرًا من الإكراه، والحرية الإيجابية (Positive Liberty) بوصفها سعيًا لأن يكون الإنسان سيد نفسه. إلا أنّ برلين حذّر من انزلاق الحرية الإيجابية إلى مشروع خلاصٍ شموليّ، حين تتحوّل الإرادة الجماعية إلى مبرّر لقمع الفرد باسم "الغاية النهائية".

في هذا السياق، تصبح فلسطين أكثر من مجرد مسرح للصراع السياسي، بل مرآة للإنسان الحديث الذي يعيد إنتاج مأساة وجوده في سعيه للحرية والخلاص معًا.

في أحد تقارير صحيفة (The Guardian, Marc 2024)، وردت شهادة لفتاة من خان يونس فقدت والدها في غارة جوية بينما كان يؤمّ الناس في صلاة فجرٍ أقاموها وسط الرّكام. كان الرجل، وهو مدرس فلسفة سابق في الجامعة الإسلامية، قد رفض مغادرة منزله رغم الإنذارات المتكررة. قال لابنته قبل يوم من موته: "لا أريد أن أعيش في خيمة انتظار الخلاص، أريد أن أموت في بيتي حرًّا".

في تلك اللحظة المعلّقة بين الحياة والموت، جسّد هذا الرجل التحرّر الفردي كفعل وجوديٍّ حاضر، ورفض الخضوع لمفهوم الخلاص المطلق الذي قد يبرر السيطرة على أفعاله. هنا يظهر تطبيقٌ مباشر لمفارقة برلين، الذي يتحدث عن الحرية السلبية من حيث هي إمكانية اتخاذ قرارات شخصية في ظل الظروف القهرية، وعن الحرية الإيجابية

بوصفها ذلك السعي لأن يكون الفرد "حرًا" ضمن مشروع شامل، قد يتحوّل إلى قيد باسم الخلاص الوطني أو الديني.

ومن زاوية أخرى، تتضح هذه المفارقة أيضًا في واقع النساء في قطاع غزة، كما توثّق الكاتبة اللبنانية **نور حطيط** في مقالها "العِرض والمقاومة: ما الحيّز المتاح للنساء في قطاع غزة؟" (7ayez.com, 2024):

> "تُستَخدم أجساد النساء هناك كرموز للوطن المغتصب، فتُفرض السيطرة على حركتهن في الحيز العام والخاص باسم "الحماية"، وتتحوّل إلى أيقونات للشرف والأنوثة الوطنية، يتم تمجيدهن أحيانًا، وتقييدهن أحيانًا أخرى."

تروي **حطيط** حالات مثل الأختين وسام وفاطمة الطويل، اللتين لجأتا إلى "بيت الأمان" الحكومي التابع لحركة حماس طلبًا للحماية من العنف الأسري، إلا أن الملجأ أصبح فضاءً يمارس فيه "الخلاص" بوصفه سلطة عليا، حيث أعيدت الفتاتان إلى منزلهما تحت ضغط "رجال الإصلاح" والشرطة المجتمعية، ما يعكس التضييق على الحرية الفردية حتى في الأماكن المفترض أن توفر الأمن.

بهذا الشكل، يصبح واضحًا أن تجربة الفلسطينيين، رجالًا ونساءً، هي تجربة مزدوجة: تحرّر محدود، يمارَس يوميًا في مواجهة الاحتلال والتهديدات المباشرة، و"خلاص غيبيّ مؤجَّل" يُفرض باسم الوطن، الدين، أو الشّرف، ويقيّد الحريات الفردية ويعيد إنتاج الهيمنة.

إن فلسطين هنا، إذن، ليست مجرد صراع جغرافي أو سياسي، بل مختبر فلسفي حيّ لمفارقة الإنسان الحديث كما صاغها برلين :كيف يمكن للفرد أن يكون حرًا ضمن منظومة تقمع حريته باسم الهدف الأسمى؟ وكيف تتحول الحرية، حين تصبح جزءًا من مشروع خلاص شامل، إلى أداة للسيطرة والقيد؟

*

التحرّر بوصفه فعلًا وجوديًّا حاضرًا

التحرّر، وفق **إيزايا برلين**، ليس شعورًا مجردًا أو شعارًا، بل ممارسة يومية للحرية السلبية، التي تعني القدرة على اتخاذ القرارات ضمن حدود الممكن، ومقاومة أي إجبار خارجي أو داخلي يفرض إرادة عليا على الفرد.

في فلسطين، يظهر هذا التحرّر في أفعال يومية صغيرة، لكنها ذات مغزى وجودي عميق: الرجل من خان يونس الذي رفض مغادرة منزله رغم القصف، النساء اللواتي يحاولن النجاة من العنف الأسري أو الصمود في الفضاءات العامة، كل هؤلاء يمارسون حرية محدودة، محفوفة بالمخاطر، ومشتّتة أحيانًا، لكنها فعلًا حضور للقرار الفردي في قلب القهر.

تتضح هذه الحدود بشكل أكبر عند دراسة واقع النساء في غزة، كما توثّق **نور حطيط** في مقالها المذكور، حيث الملجأ الحكومي "بيت الأمان"، الذي يُفترض أن يوفر حماية، يتحوّل في كثير من الحالات إلى فضاء يخضع لرقابة صارمة، حيث يُعاد إنتاج القهر الاجتماعي والسياسي. الأُختان وسام وفاطمة الطويل، على سبيل المثال، واجهتا ضغوطًا يومية من "رجال الإصلاح" والشرطة المجتمعية لإعادتهما إلى منزل والدهما المعنّف، ما يوضح أن "مساحة الحرية" داخل هذه المؤسسات ليست حرية فعلية بقدر ما هي هامش محدود جدًا، متقلب، ومقيد بشدة.

هنا يظهر البعد الفلسفي للتحرّر بوضوح، حيث الحرية لا تعني غياب كلّ القيود، بل الوعي بالقيود والقدرة على ممارسة القرار الشخصي ضمنها، حتى ولو كان هذا القرار محدودًا ومهددًا.

لو تناولنا المسألة من منظور فلسفي أوسع، فإن مواجهة العبث اليومي في ظروف القهر تمثل حرية أخلاقية، كما يرى **ألبير كامو** (Albert Camus)، إذ يختار الفرد أن يعي وجوده ويتصرف ضمن حدود الممكن. كذلك، تؤكد حنّة أرندت (Hannah Arendt) أن المشاركة في الحياة العامة والفعل السياسي، مهما كانت قيودها، تمثل ممارسة فعلية للحرية، وهو ما يظهر في تحركات النساء والفرد المقاوم في غزة.

في سياق الأدب الجندري وما بعد الجندري، يُفهم التحرّر كفعل وجودي يومي يتجسد في مقاومة الأنساق الاجتماعية والسياسية التي تحدّ من حرية الفرد. هذه المقاومة لا تعبّر عن انتصار نهائي، بل عن صمود مستمر في مواجهة القمع. كما تشير **نور حطيط**، حتى في ملجأ "بيت الأمان" كان على النساء ممارسة أي هامش حرية متاح لهنّ ضمن نظام يقيّد كل شيء باسم حماية الوطن والشرف، وهامش الحرية هذا يظهر قدرة الفرد على اختيار وجوده رغم القيود الاجتماعية والسياسية.

تحضرني هنا أعمال **إيليزابيث أنكر** (Elizabeth Grosz)، التي ترى أن الجسد هو مساحة إنتاج الهوية والسيطرة، وأن ممارسات السلطة تتحكم بالتحرّك الجسدي والاجتماعي، حتى في حالات الملاذ الآمن. كذلك هو حال **سوزان مويل** (Susan Moller Okin) التي تركز على ضرورة فهم العدالة الجندرية داخل الأسرة والمجتمع، بما يشمل القيود المفروضة على النساء باسم الشرف أو الوطن، وهو ما يظهر في قطاع غزة حيث تمارس السلطة العشائرية والمؤسساتية ضغطًا يوميًا على النساء، فتتراوح حريتهن بين حرية جزئية وصمود مستمر.

هنا يمكن تشبيك الإسهام الذي قدمه لنا "كتاب الوصايا: شهادات مبدعات ومبدعين من غزة في مواجهة الموت"، وهو من تأليف مجموعة من المؤلّفين (تقديم **جوديث باتلر، ألبيرتو مانغويل وريم غنايم**). حيث يوثق الكتاب شهادات أدبية وفكرية لفنانين وكتاب فلسطينيين، وتعرض كيف تتحول الكلمات إلى مساحة مقاومة ومعرفة. كما يطرح الكتاب سؤالاً محوريًا حول قدرة القراء على الوصول إلى تجربة الآخر، خاصةً في ظروف القهر والحصار، وهو ما يعكس واقع التحرر الجزئي للنساء والفنانين: حرية التعبير محكومة بالتهديد، لكنها مع ذلك فعل وجودي حيّ، يثبت قدرة الفرد على مقاومة الهيمنة والسيطرة حتى ضمن القيود القصوى. بذلك، يصبح التحرّر في هذا السياق فعلًا وجوديًا حاضرًا، ولكنه جزئي ومؤقت، يتجسد في القدرة على اتخاذ قرارات صغيرة ضمن قيود اجتماعية وسياسية ودينية، وفي مواجهة مشاريع الخلاص الغيبي المؤجّل التي تهدف إلى امتصاص الحرية الفردية باسم هدف أعلى. الأدب هنا لا يكتفي بالتوثيق، بل يصبح أداة تحليل وفهم لتجربة الحرية الجزئية، وللصراع اليومي بين إرادة الذات وهيمنة النظام الاجتماعي والسياسي.

الخلاص الغيبي المؤجّل

في مقابل فعل التحرّر اليومي الذي يتجسّد في الحاضر، يقف مفهوم آخر أكثر التباسًا وغموضًا، هو *الخلاص الغيبي المؤجّل* —أي الإيمان بوجود وعد كوني أو تاريخي أو ميتافيزيقي، يبرّر الألم القائم باسم الخلاص القادم.

وفق إيزايا برلين، هذا النمط من التفكير ينتمي إلى ما سمّاه بـ"الحرية الإيجابية"، أي الرغبة في أن يكون الإنسان "سيّد نفسه" عبر إخضاع واقعه لرؤية كُلّية أو مشروع مثالي جامع. غير أنّ هذه الرؤية، حين تتحول إلى أيديولوجيا، تنقلب إلى نقيضها: فهي تُفرغ الحاضر من معناه، وتحوّله إلى مجرّد مرحلة نحو غاية مؤجّلة، بينما تُختزل حرية الأفراد في طاعة "الكلّ" أو "القدر" أو "المشروع".

في السياق الفلسطيني، يظهر هذا الخلاص المؤجّل في أكثر من تجلٍّ. في **غزّة**، وفي خطاب حماس والجهاد الإسلامي، يتخذ هذا "الخلاص" شكل الإيمان بأن النصر الإلهي قادم، وأنّ الصبر على القهر والدمار هو طريق إلى تجلّي العدالة الإلهية. في **الضفّة الغربية**، يتحوّل الخلاص إلى وعدٍ سياسي مُعلَّق منذ عقود: دولة مستقلة، أو كيان سيادي يلوح ولا يتحقق. أما في المدن الفلسطينية **داخل الخط الأخضر**، فإن الفلسطيني يعيش مفارقةً مزدوجة: هو "مواطن" بالمعنى القانوني، لكنه محكوم بنظام يراه دومًا استثناءً، لا انتماءً. يعيش هذا الفرد في حالة انفصام هويّاتي دائم بين مواطنة شكلية وانتماء وجودي منفي، فيمارس نوعًا من الحرية المقيّدة التي تشبه ما وصفه برلين بـ"السجن الذهني للمفاهيم الكلية"، إذ يُطلب منه أن يندمج من دون أن يُقبَل، وأن يصمت باسم "التعايش" الذي لا يرى إلا طرفًا واحدًا من المعادلة.

هذا الخلاص الغيبي المؤجّل لا يقتصر على الخطاب الديني وحده، بل يمتد إلى الخطابات السياسية والقومية التي تُرجئ العدالة إلى زمن لم يأتِ بعد، وتحوّل الوجود الفلسطيني إلى انتظار دائم. في المقابل، يقدّم الأدب الفلسطيني الحديث، كما في كتاب "الوصايا: شهادات مبدعات ومبدعين من غزة في مواجهة الموت"، صوتًا مختلفًا؛ صوتًا يصرّ على الحاضر، لا على الميتافيزيقيا. في هذه النصوص، لا يَظهر الأمل بوصفه وعدًا

مؤجّلًا، بل بوصفه فعلَ كتابة ومقاومة في وجه الفناء، وكأن الكلمة هي الوسيط الأخير بين الحرية والمَحْوِ.

إنّ ما تكشفه هذه التجارب هو أنّ **الخلاص الغيبي المؤجّل ليس سوى وجه آخر لتأجيل التحرّر الفعلي**، وأنّ منطق الانتظار، (بمعناه الماشيحانيّ أو المَهْدويّ)، سواء كان دينيًا أم وطنيًا أم أخلاقيًا، هو ما يعيد إنتاج الهيمنة.

الفلسطيني هنا لا يواجه الاحتلال فحسب، بل يواجه أيضًا فكرة أن "الخلاص" لا يمكن أن يتحقق إلا في بعدٍ غائب، لا في زمنٍ حيّ.

تلتقي هذه الفكرة مع أطروحات فلاسفة ما بعد الجندرية مثل **إيليزابيث أنكر**، التي تحلّل كيف تُعيد الخطابات الكبرى إنتاج أشكال جديدة من القهر باسم "الغاية"، ومع **حنة أرندت** التي ترى أن الحرية ليست "ما نبلغ إليه"، بل "ما نفعله الآن".

بهذا المعنى، فإنّ الفلسطيني، في غزّة أو نابلس أو حيفا، لا يُختبر ككائن ينتظر الخلاص، بل كذات تخلق حريتها في كل لحظة مواجهة، كتابة، أو بقاء.

*

المفارقة الفلسطينية: الشعر، الجسد، والحرية المؤجَّلة

في قلب التجربة الفلسطينية تتقاطع المفاهيم وتتشابك الأزمنة: بين حريةٍ تُمارَس داخل الجرح، وخلاصٍ غيبيٍّ مؤجَّل يُعلَّق دائمًا في أفق بعيد. في هذا التوتر الوجودي، كما يقول **إيزايا برلين**، تكمن المفارقة الأخطر في الفكر السياسي والأخلاقي: حين تتحوّل الحرية من ممارسةٍ حاضرة إلى وعدٍ كليٍّ، ومن تجربةٍ بشرية إلى هدفٍ متعالٍ، تصبح الأداة التي وُجدت لتحرير الإنسان وسيلةً لقهره. هذه هي المفارقة التي تسكن الوعي الفلسطيني في كل تجلياته؛ في الشارع كما في القصيدة، وفي الجسد كما في اللغة، وفي غزّة كما في حيفا.

وصفت **نور حطيط** في مقالتها (سابقة الذكر) هذا التناقض بعمق واقعيٍّ صارخ: النساء في غزة محاصرات بين منظومتين من السيطرة؛ الاحتلال من جهة، والمنظومة الأبوية المقاومة من جهة أخرى. أجسادهنّ تتحوّل إلى رموز وطنية: "الأرض المغتصبة" التي يجب حمايتها، ما يجعل من الحماية شكلًا من أشكال المصادرة. وحتى "بيت الأمان" الذي يُفترض أن يكون ملاذًا لضحايا العنف، يعمل ضمن المنطق ذاته: مراقبة، وصاية، وإعادة إنتاج للعنف تحت اسم "الفضيلة" و"الهوية". إنها، كما يقول **برلين**، "الحرية الإيجابية حين تنقلب إلى استبداد باسم الهدف الأعلى". في هذه المفارقة، تتعرّى فكرة التحرّر من داخلها، إذ يتحول السعي إلى الخلاص الجماعي إلى نفيٍ للحرية الفردية، بينما يصبح الحاضر الفلسطيني ساحةً معلّقة بين فعلٍ لا يُنجز ووعدٍ لا يتحقّق.

لكنّ هذا اللاأمل، كما يبيّنه **باسيليوس بواردي** في دراسته "**مفهوم الأمل واللاأمل في الشعر الفلسطيني: ريم غنايم ووسام جبران نموذجين نصيّين**"، لا يُقابَل بالاستسلام، بل يتحوّل إلى **فعل مقاومة معرفي وجمالي.**

الشعر الفلسطيني الحديث، كما يرى بواردي، يواجه فكرة الخلاص الغيبي المؤجّل بتحويل اللاأمل نفسه إلى طاقة للحياة. عند **ريم غنايم**، الكتابة ليست انتظارًا للأمل، بل ممارسةً له داخل العدم، نوع من " العيش في الكارثة " كما تصفه **جوديث بتلر** ، حيث يُعاد تشكيل الذات الأنثوية لا بوصفها رمزًا وطنيًا، بل **جسدًا كاتبًا** يخلق معناه من ذاته. في قصائدها) **ماغ: سيرة المنافي، نبوءات**، يتفتت الزمن وتذوب الحدود بين الوطن

والمنفى، كما بين الأنوثة والمكان، فيتحول التيه إلى فضاء تحرّر داخلي، وإلى **رفضٍ صامتٍ للخلاص الغيبي الذي يُؤجِّل معنى الحياة حتى إشعار آخر**.

أما **وسام جبران**، كما يقرأه بواردي، فيحمل هذا التيه إلى أقصى مداه الفلسفي، حيث يصبح الانفصال ذاته شكلاً من أشكال التواصل. في قوله: "**أنا الكون حين لا أكونه، وحين لا يكونني الكون**"، يتجسّد الوعي الفلسطيني الممزّق الذي يجد في التناقض ذاته معنى للحضور. هذا التيه ليس سلبًا، بل **تحديًا لكل يقينٍ ميتافيزيقي**، مقاومةً للمنظومات التي تصادر حرية الفرد باسم الأمة أو العقيدة أو الشرف. إنها الحرية كما أرادها **برلين**: حرية داخل القيد، لا خارجه؛ فعل وجوديٌّ يُمارَس رغم الضرورة لا بانتظار زوالها.

بهذا المعنى، يُصبح المشروع الشعري عند **غنايم وجبران** امتدادًا لمقاومة النساء في سرد **حطيط**، وللفكر الذي يحذر منه **برلين**: فالجسد الأنثوي الذي يُعاد امتلاكه باسم الوطن، يقف هنا جنبًا إلى جنب مع الجسد الشعري الذي يُعيد تعريف الوطن نفسه. أنّ الكتابة، النسوية، الشعرية، الفلسفية، هي ما يُبقي الوجود الفلسطيني حيًا في مواجهة انمحائه، ويحوّل اللاأمل إلى **استمرارية للوعي لا تنكسر**.

ليست الحرية وعدًا مؤجلًا بالانتصار، بل **قدرة على إنتاج المعنى في قلب القهر**، وتحويل الألم إلى لغة.

هكذا، يتشكّل من تداخل هذه الطبقات الثلاث، الاجتماعي عند **حطيط**، السياسي عند **برلين**، والجمالي عند **بواردي**، وعيٌ فلسطيني جديد، لا يطلب الخلاص من الخارج، بل يصنع حريته في الداخل.

الحرية ليست مشروعًا ينتظر اكتماله، بل فعلًا يوميًا، لغويًا وجسديًا وشعريًا، يمارس ذاته ضدّ العدم.

في هذا الأفق، لا تعود فلسطين رمزًا فحسب، بل **مختبرًا كونيًا لفهم معنى التحرّر الممكن في زمن اللاأمل**.

مراجع

- Berlin, I. (1958). *Two Concepts of Liberty*. Lecture given as Chichele Professor of Social and Political Theory, University of Oxford, 31 October 1958.
- Berlin, I. (1969). *Four Essays on Liberty*. Oxford: Oxford University Press. (Contains “Two Concepts of Liberty”).
- Berlin, I. (2002). *Liberty: Incorporating Four Essays on Liberty*. Oxford: Oxford University Press. (Re-edition).
- حطيط، نور. (2024، 3 مايو). "العِرض والمقاومة: ما الحيّز المتاح للنساء في قطاع غزة؟". موقع:
- ttps://7ayez.com/2024/05/03/%d8%a7%d9%84%d8%b9%d9%90%d8%b1%d8%b6-%d9%88%d8%a7%d9%84%d9%85%d9%82%d8%a7%d9%88%d9%85%d8%a9-%d9%85%d8%a7-%d8%a7%d9%84%d8%ad%d9%8a%d9%91%d8%b2-%d8%a7%d9%84%d9%85%d8%aa%d8%a7%d8%ad-%d9%84%d9%84%d9%86/noor-h/%d8%b9%d8%a7%d9%85/
- غنايم، ريم (محرّر) .(2024) .كتاب الوصايا: شهادات مبدعات ومبدعين من غزّة في مواجهة الموت .بيروت: دار مرفأ للثقافة والنشر.
- بواردي، باسيليوس. " مفهوم الأمل واللاأمل في الشعر الفلسطينيّ: ريم غنايم ووسام جبران نموذجين نصّيين". (13 آذار 2023) مجلة الدراسات العربية